

السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم
The Biographical in ancient arabic literature

د. دواح أحمد¹

¹ المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، wajih-001@live.fr

تاريخ الاستلام: 2019/02/15 تاريخ القبول: 2019/03/18 تاريخ النشر: 2020/06/01

ملخص:

إن دراسة السيرة الذاتية في تاريخ الأدب العربي دراسة لها طرافتها، ولها دلالتها على مدى جرأة كاتبها على الاعتراف، وعلى أثر تقاليدنا الاجتماعية والأخلاقية في كبح هذه الجرأة، ووضع حدود صارمة لها، لا يساعد عليها.

ولقد نعلم أن السيرة الذاتية في الأدب العربي أصبحت تحظى باهتمام بالغ ومتزايد، سواء أكان ذلك على مستوى الكتابة أم النقد، واللافت للنظر أن هذه الكتابات النقدية حول الترجمة والسيرة الذاتية إنما هي كتابات تتسم بالإيجاز المخل والعرض السريع والأحكام العامة، التي تقتصر إلى التعليل والتحليل، وإن كثيرا منها لينهج نهجا تاريخيا في دراسة السيرة قديما وحديثا.

كلمات مفتاحية: السيرة الذاتية، الترجمة الذاتية، التراث الشعبي، الأدب العربي.

Abstract:

The study of autobiography in the history of Arabic literature is a study of its own, and it is indicative of the boldness of its author on recognition, and in light of our social and moral traditions in curbing this audacity, and setting strict limits on it, does not support them.

We know that biographies in Arabic literature are becoming increasingly interesting, both at the level of writing and criticism, and it is remarkable that these critical writings on translation and autobiography are writings that are characterized by a brief summary, a quick presentation and general provisions that lack explanation and analysis, Many of them adopt a historical approach to the study of history, both ancient and modern.

Keywords: Biography, self-translation, folklore, Arabic literature.

المؤلف المرسل: دواح أحمد، الإيميل: wajih-001@live.fr

أولى المحاولات والدراسات في ميدان الترجمة الذاتية:

وقد تكون أولى المحاولات والدراسات في ميدان الترجمة الذاتية هي دراسة (مسز بور

(Burt)، وقد نُشرت سنة 1909 تحت عنوان "الترجمة الذاتية دراسة نقدية مقارنة":

The Autobiography: A critical and comparative study.

إضافةً إلى هذه الدراسة فقد ظهرت إلى الوجود محاضرة ألقاها السيد "سدني لي"، وقد

نشرت عام 1911 وهي من الدراسات الرائدة التي تناولت الترجمة الذاتية بالنقد، ثم تَوَالَتِ

الدراسات تَتْرَى، حيث تنازع النقاد أمرهم بينهم حول مفهوم الترجمة الذاتية، ونعثر على

فصول كتبها جماعة من النقاد نذكر على سبيل المثال منهم لا الحصر "الدودون، وولبور

كروسي، هارولد نيكلسون، دونالد استاوفر كلارك، ثرال واديسون، كيت أوبرين، شوميكر،

أوزيون".

ويُعدُّ البحث الذي كتبه المستشرق الألماني "فرانز روزنتال" أول دراسة تناولت السيرة

الذاتية في الأدب العربي نقدا وتحليلا، حيث نُشرت في مجلة الدراسات الشرقية (Anolecta

(Drientalia) التي يُصدرها المعهد البابوي بروما، وكان ذلك سنة 1937، وقد نُشرت باللغة

الألمانية أول مرة، ولخصها عبد الرحمن بدوي في كتابه "الموت والعبقريّة"، الصادر عن دار

النّهضة المصرية بالقاهرة سنة 1954، إلا أنه لم يعالج السيرة الذاتية معالجة فنية، حيث

نهج منهاجا تاريخيا صرفا، إذ تحدّث عنها حديثا موجزا حسب العصور التي ظهرت فيها،

واختصر هذه الترجمات. وقد سار على نهجه مستشرق ألماني آخر هو كارل بروكلمان، في

مقالة نشرت مع أبحاث أخرى، جُمِعَتْ في كتاب عنوانه "المُنْتَقَى من دراسات المستشرق"،

وكان ذلك عام 1955. وحذا حذوه شوقي ضيف في كتاب عنوانه "الترجمة الشخصية

"ضمن سلسلة فنون الأدب العربي (الفن القصصي) سنة 1956 عن دار المعارف بمصر.

وقد ظهرت محاولات في هذا المجال، وصدرت مقالات وكتب نقدية تحليلية، اهتمت برصد السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم والحديث، وهي دراسات لنقاد أضحت أسماء بعضهم مرتبطة بنقد السيرة الذاتية تحديداً.

ومن هذه الدراسات ما كتبه المستشرق "جوستاف جرونباوم" في كتابه عن حضارة الإسلام، حيث نُشر مترجماً إلى العربية عام 1956. وفي مقال له بعنوان "الأدب والتاريخ" تحدّث عن الترجمة الذاتية حديثاً موجزاً، ومَرَّ عليها مَرَّ السَّحاب، إذ ضلَّ وأضلَّ وأرسل أحكاماً فطيرة، لا تخلو من العجلة والتَّحيز، وضيق النظرة كما هي الحال عند كثير من المستشرقين.

وإنَّ آفة هؤلاء المستشرقين في دراستهم للسَّير الإسلامية، ولغيرها من أحداث النَّاس وأطوار الزَّمان قلة التَّنَبُّث وضعف التَّمحيص. وقد وقعت طائفة منهم في هذا الخطأ الفظيع، على تفاوت بينهم، في دقة المآخذ، وحدّة الانتباه.

إضافة إلى قلة زادهم في العربية، ولإبراهيمي (ت1964م) رأي حكيم ومنطوق سديد، إذ يقول وهو يتحدّث عن هؤلاء الجرامقة: "إنَّي تَقصَّيْتُ أخبار الكثير من مشهورهم فلم أجد واحداً منهم برع في العربية كما يبرع العربيُّ في لُغات الغرب نطقاً وكتابة، بل جميعهم لُكُنُّ الألسنة والأقلام، وإنَّما ينبُءُ شأنهم عند أقوامهم وحكوماتهم لأنَّ لهم فيها مآرب أخرى، ولا أعتدُّ أنَّ مستشرقاً غربياً ينبُءُ في العربية ولو ركب الصَّعبَ وشرب في القُعبِ وادَّعى الولاء في بني كعب".¹

ولإحسان عباس محاولةٌ محمودَةٌ حيث أَلَفَ كتاباً عنوانه "فنُّ السَّيرة" صدر سنة 1956، استولى فيه على الأمد الأقصى من الدَّقة والضَّبط وسدّد وقارب، وعرض سِير بعض الشخصيات المسلمة، وحاول أن ينفذ إلى جانب من تجاربهم الحيَّة، ووضع مفهوماً

أوسع لمهمة الأدب، واستكثر من الأمثلة، وخاصة حين عرض للسَّير الذاتية في الأدب العربي، ومزج بين العرض التاريخي والتحليل غير المستقصي لبعض النماذج، وقسم نظريته في السَّير بين الأدب العربي والأدب الغربي، لأجل شمول النظرة، وتنوع الأمثلة، وتطعيم الدراسة، وهي بلا شك دراسة رائدة في هذا الميدان.

والى جانب هذه المحاولة هناك محاولة أخرى عنوانها "التَّراجُم والسَّير" ضمن سلسلة فنون الأدب العربي (الفن القصصي)، واشترك في وضعه جماعة من لجنة من أدباء الأقطار العربيَّة، وكتب مقدِّمته الأستاذ محمَّد عبد الغنيَّ حسن، وصدر عن دار المعارف بمصر.

وتناول الباحثون في هذا الكتاب التَّراجُم ونشأتها والداعي إليها، وتعرَّضوا للسَّير النَّبويَّة والشَّعريَّة، وأنواع كتب التَّراجُم عبر العصور، وتحقيقها، والعناية بتواريخها ومصادرها، وترتيب أعلامها، وضبطها، وتحقيق أنسابها، وتلخيصها وتذييلها...

إلى جانب هذا نعر على فصل كتبه الدكتور عبد المحسن طه بدر في رسالته للدكتوراه: تطوُّر الرواية العربيَّة الحديثة في مصر (1870-1938)، دار المعارف، القاهرة، سنة 1963 عن مكتب الدِّراسات الحديثة. بعنوان "رواية التَّرجمة الذاتية". وفيها تعرَّض للظُّروف التي أحاطت بممثليها وأثرها في نفسيَّاتهم وتفكيرهم وأدبهم، واختار من النماذج الأيام لطفه حسين، وزينب لهيكل، وإبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقاد، وعودة الرُّوح، وعصفور من الشَّرق، ويوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم، والحقُّ يُقال إنَّها محاولة جادة وجهد علمي لا غبار عليه.

كما ظهر كتابٌ يحمل عنوان "السَّيرة فنٌّ وتاريخ" لصاحبه ماهر حسن فهمي، نُشر عام 1970 عن دار مكتبة النهضة المصريَّة، القاهرة، وقد أفرد كاتبها باباً من مائة صفحة (219 إلى 318)، تناول فيه السَّيرة الذاتية. ولعلَّ أحسن ما كُتب في هذا المجال كتاب

"الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ليحي إبراهيم عبد الدايم، الصادر عن دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1974.

وهو كتاب علمي ممتع إلى أبعد غايات الإمتاع، ولا أعرف أن مثله أُتيح لنا في هذا العصر، ولست أقول هذا متكثرًا أو غاليا، وإنما أقوله عن ثقة وعن بيّنة. وقد حاول صاحبه الوقوف على مفهوم الترجمة الذاتية، وعلى الملامح البارزة في بنائها الفني، واستخلص أسس التركيب الفني لهذا اللون المستحدث من الدراسات النقدية في فنون الأدب.

وسعى إلى الوصول إلى بناء فني من أجل تحديد ملامح الترجمة الذاتية، وأسسها الفنية، ومفهومها الحديث، إلى جانب هذا عرضت الدراسة لمصطلحات هذا النوع الأدبي، وقضاياها ومفاهيمه، كما تناولت ما بين أيدينا من ترجمات ذاتية، وتتبع الوقوف عندها تتبعا تاريخيا، ثم جاء من بعد ذلك التفسير والنقد والتحليل.

ومن الذين أسهموا في هذا المجال "جورج ماي" بكتابه "السيرة الذاتية" وترجمه إلى العربية محمد القاضي وعبد الله صوله، صدر عن بيت الحكمة بقرطاج، تونس.

ونجد كذلك (فيليب لوجون) في Le pacte autobiographique، "السيرة الذاتية"، الميثاق والتاريخ الأدبي، نقله إلى العربية عمر حلي، صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.

وكذلك شارك في هذا الميدان الأديب صدوق نور الدين بكتابه "سير المفكرين الذاتية". واختار من السير النماذج التالية: "أوراق العمر" للويس عوض، و"غربة الراعي" لإحسان عباس، و"حفريات في الذاكرة" لمحمد عابد الجابري، و"حصاد السنين" لزكي نجيب محمود.

وفي تونس نلمس اهتماما لافتا بالسيرة الذاتية لدى بعض الباحثين والنقاد المعاصرين، ونذكر منهم الباحثة التونسية "فوزية الصّغار الزّاوق"، وهي الناقدة التي ما فتئت تواصل بناء

مشروعها النقديّ الأدبيّ وتطويره. حيث صدر لها كتاب جديد بعنوان "التّرجمة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث". كتاب "سبعون" لميخائيل نعيمة نموذجاً. والكتابُ في الأصل أطروحةٌ جامعيّة، أعدّتها الباحثة وقدمتها إلى كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة تونس، لنيل شهادة التّعمّق في البحث.

الفروق بين السّيرة والتّرجمة:

وقد جعل الباحثون والدارسون "التّرجمة الذاتيّة" اصطلاحاً مُرادفاً ومطابقاً لمصطلح "السّيرة الذاتيّة". وإنّ القدماء كانوا لا يُميّزون بين "لفظ السّيرة"، ولفظ "التّرجمة"، وكانوا يوظّفون كلا اللفظين بمعنًى واحد.

و"السّيرة الذاتيّة": "هي تجربة ذاتيّة لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التّجربة دور النّضج، وأصبحت في نفس صاحبها من القلق الفنّي فإنّه لا بُدّ أن يكتبها".²

فالسّيرة الذاتيّة هي مجموعة تجارب إنسانية ثريّة، تعبّر عن نفس كبيرة في نُضج، بعد صراع طويل ومرير، ورحلة بين الشكّ واليقين، وهي حكاية عُمر، أمّا كلمة الذات فتعني "النفس والشّخص". يُقال في الأدب: نقد ذاتيّ، يرجع إلى آراء الشّخص وانفعالاته. وهو خلاف الموضوعي".³ وذاتُ الصّدر: سريرة الإنسان وهو باطن النّفس وخفاياها.

والسّيرة الذاتيّة بوصفها جنساً أدبيّاً بحسب فيليب لوجون Philippe Le Jenne: "هي حكيّ استعاديّ نثريّ يقوم به شخص واقعيّ عن وجوده الخاصّ وذلك عندما يركّز على حياته الفرديّة وعلى تاريخ شخصيّته بصفة خاصّة".⁴ وفي هذا اللّون من الأدب، يمارس الكاتب عمليّة الاسترجاع بشكل مكثّف، فنراه يُبحر بذاكرته، عائداً من الزّمن الحاضر الذي يشهد فعل الحكي بالكتابة، إلى الزّمن الماضي الذي شهد مختلف التّجارب، التي خلّقت في نفسه عظيم الأثر.

الترجمة الذاتية في التراث العربي:

يقول شوقي ضيف وهو يعرض صور الترجمة الشخصية عند العرب في عصورهم المختلفة من العصر العباسي إلى العصر الحديث: "وهو فنّ مستحدث عندهم، قلّدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرأوا آثارها، وخاصة اليونان، فإنّ بعض متفلسفتهم ترجم لنفسه، وتحدّث عن كتبه، وحاكاهم متفلسفو العرب، واتّسعت المحاكاة، فدخل فيه العلماء والمتصوّفة ورجال السياسة".⁵

ولو أنّ الدكتور شوقي ضيف أخلّى مقدّمته من هذه العبارة: "وهو فنّ مستحدث عندهم". لما كان لنا عليه من سبيل، فحسب كتابه أن يؤرّخ للترجمة الشخصية، ولكنّه أبى إلّا أن يرسله رأياً حاسماً، وحكما جازماً، وذلك رأيٌ نكره عليه، وحكمٌ نراجع فيه لأنّه يتّصل بقضية مهمّة في الأدب العربي. إنّ كتابة المذكرات والسّير والتّراجم العربيّة ليست بدعا من بدع العصور الحديثة، بل هي قديمة قدم الإنسان، واضرب لهم مثلاً شعراء المعلّقات فهل كانت أشعارهم إلّا ذكراً لتاريخهم، وسيراً سجّلوا فيها ما استطاعوا من حروب وأيام.

إنّ القارئ لهذه المعلّقات العشر الأثيرة يلاحظ هذه الظواهر، إذ يعثر على أحاسيس ذاتيّة عميقة، ويقف بجلاء على تجارب ذاتيّة في الحياة صاغها أصحابها شعرا. ولقد أتاح الشعر لهؤلاء الشعراء أن يُنشئوا سيرهم الذاتية تبعاً لتقليد أدبيّ كان سائداً في عصرهم، إنهم خلّفوا للذين جاؤوا من بعدهم تاريخاً فردياً خاصاً، عكس تفرّدهم بمقوّمات شخصيّة وتجارب ذاتيّة، ومواقف خالدة.

فهذا طرفة بن العبد (ت569هـ) يقدّم لنا شخصيّة التي تَمور مؤراً بالحزم بالإقدام قائلاً:

من [الطويل]:

إذا القوم قالوا من فتى خِلْتُ أنني
ولست بحلال التَّلَاع مخافة
وإن تبغني في حلقة القوم تلقني
متى تأتني أصبحك كأساً رويةً
وإن يلتق الحيُّ الجميع تُلاقي
عُنيْتُ فلم أكسل ولم أتبلد
ولكن متى يسترفد القوم أرِفِد
وإن تقتنني في الحوانيت تصطد
وإن كنتُ عنها غانيا فاعنَّ وازدد
إلى ذروة البيت الرفيع المصمَّد⁶

إنَّ أوَّل ما يلقانا من هذا القسم إنّما هو حديث الشَّاعر عن نفسه في إيجاز وإجمال، وفي أبيات قليلة جامعة، كأنه يريد أن يُعرِّف نفسه لنا، أو يقدِّمها إلينا، كما يقول المحدثون، فكأننا نلقاه لأوَّل مرَّة، وكأننا نحَبُّ أن نعرف من أمره ما نجهل، وكأنه يُصوِّر لنا نفسه تصويراً يسيراً، قبل أن يأخذَ معنا في الحديث المفصَّل الطَّويل.⁷

ويُلمُّ طرفهً بأدب الاعتراف، ويحدِّثنا عن رأيه في نفسه وفي الناس، وفي العلاقات الاجتماعية، ويدعونا إلى أن نعرف له قدره، ونذكره فنحسن ذكره.

وهذا زهير بن أبي سلمى (ت627م) يمرّ بالديار، ديار الحبيبة بعد عشرين حِجَّةً فيلقاها وهو كظيمٌ، ويخرج عن طوره العادي، حزنٌ مُمضٍ، ويأسٌ هالك، وأسى عميقٌ، تُحيي هذه الأطلال في النَّفس طائفة من الذكريات البعيدة، طال عليها الأمدُ، وتُعدُّ بها العهد، فلم يمَحِّها، يقول من [الطويل]:

أمن أم أوفى دمنةً لم تكلم
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجَّةً
فلما عرفت الدَّار قلتُ لربِّها
لقد وقف زهيرٌ وأطال الوقوف، وإذا هو مخزون مُدْعِنٌ لصروف الدَّهر، يُلحُّ في السُّؤال ويصوِّر ما بقِيَ قائماً من هذه الأطلال القليلة التي لم يمَحِّها قَدَمُ العهد...

بحومانة الدَّراج فالمتلَّم...
فلأياً عرفت الدَّار بعد توهُّم...
ألا انعم صباحاً أيُّها الرِّبعُ واسلم...⁸

ثمَّ تنداحُ ذكرياته في هذه القصيدة ليمدحَ الأشرافَ من غطفانَ، ويُثني على هرم بنِ سنانٍ والحارثِ بنِ عَوْفٍ لأنَّهما أصلحا بين "عَبْسٍ وَذُبْيَانَ"، وتحمَّلا ديابَ القتلَى من الفريقين، ونصرا السِّلم، وعَصَمَا قومها من الفتنة والشَّقاق، وكأَنَّ القصيدة مذكَّرات للشَّاعر نفسه ولقومه، ففيها غزلٌ، وصف فيه الأطلال والرَّحيل، وفيها مدح للمصلحين، وفيها وصفٌ للحرب، وتحذير لقبيلة عَبْسٍ، وفيها اعتذار عن قبيلة ذُبْيَانَ، وذكر قصة حُصين بنِ ضَمْضَم.

وهذا امرؤُ القيس (ت450هـ) كان شعره من امتلاء قلبه، يُردِّدُ صدى ذكريات كانت للشَّاعر سببَ مُتعة أو سببَ كآبة، إنَّ شعره حديثُ نفس عارمة لاهية، وذكريات نفس مشرَّدة، وغضبة نفس ثائرة.

إذ يهتف فينا بذكرياته ومذكراته، لنسعدَه ونعِينَه على البكاء، عند تذكُّره حبيباً فارقه، ومنزلاً خرج منه:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخولِ فَحَوْلِ⁹
والمعلَّقة مذكَّرات شخصية يُصوِّر فيها امرؤُ القيس ذكرياته وبُكائياته وزَفَراته ومُغامراته مع النِّسوة، ويحدِّثنا عن صاحبتِه "فاطمة" التي كان يزرعُ الغيرة في قلبها، كما يذكر "أمَّ الحُوَيْرِثَ وأمَّ الرِّباب"، ثم يُفيض في وصف "يوم عُنَيَّة".... وفي القصيدة من أدب الاعتراف شيء كثير.

"ولم تكن المعلَّقات وحدها التُّراث الشعريُّ لأصحابها، حيث ضمَّنها ذكرياتهم ومشاهد حياتهم... بل كان لهم الكثير الكاثر غيرها، كما كان لغيرهم من شعراء العصر الجاهليِّ. وفي عصور الإسلام مع الأمويِّين والعباسيِّين والفاطميِّين والأيوبيِّين وسواهم، كان الشعر

بمثابة المذكرات والذكريات والتأريخ... كان الموسوعة التي تنتظم سير الخلفاء والشعراء والناس، حتى سُمِّي ونُعت بأنه "ديوان العرب".¹⁰

ومن نماذج السيرة الذاتية الشعرية في الأدب العربي الإسلامي القديم، نذكر الثانية الكبرى لصاحبها شرف الدين بن الفارض (ت632هـ)، وهي قصيدة سمّاها (نظم السلوك)، قصّ فيها تجربته الروحية وما لقيه من شدائد ومعاناة في هذه التجربة.

"يُصوّر فيها معراج الروحي، وما عاناه في هذا المعراج من شدائد، حتى وصل إلى مقام الاتحاد بالذات العلية، ويقصّ لنا ذلك قصصا بديعا، واستمع إليه يصف ما تحمله من مشقة وعناء في أول عهده بالحب الإلهي".¹¹

يقول في تائيته الكبرى:

فَنَفْسِي كَانَتْ قَبْلُ لَوَامَةً مَتَى	أُطْعِمَهَا عَصَتْ أَوْ أَغَصَّ كَانَتْ مُطِيعَتِي
فَأُورِدْتُهَا مَا الْمَوْتُ أَيْسَرُ بَعْضُهُ	وَأَتَعَبْتُهَا كَيْمَا تَكُونَ مُرِيحَتِي
فَعَادَتْ وَمَهْمَا حُمَلَتْهُ تَحْمَلَتْ	هُ مَنِّي وَإِنْ خَفَفْتُ عَنْهَا تَأَدَّتْ
وَأَذْهَبْتُ فِي تَهْذِيبِهَا كُلَّ لَذَّةٍ	بِإِبْعَادِهَا عَنِ عَادِلِهَا فَاطْمَأْنَنْتْ
وَلَمْ يَبْقَ هَوْلٌ دُونَهَا مَا رَكِبْتُه	وَأَشْهَدُ نَفْسِي فِيهِ غَيْرَ زَكِيَةٍ... ¹²

وبعد ذلك أخذ نفسه بأعمال العبادة من نُسك وصوم وتلاوة القرآن بالعشي والإشراق، وترتيل الأوراد، والمبالغة في الاعتكاف، والسّياحة في أرض الله، والرّضا بالقليل، ورياضة النّفس على المحبّة التي هي دينه، والاستعداد ليوم الرّحيل.

إنّ ابن الفارض صوّر لنا في هذه القصيدة الشّهيرة سيرته الذاتية الصّوفيّة، وهي سيرة تقوم على المكاشفات والمشاهدات التي ترفع الحُجُب عمّا وراء الغيب. ولاشك أنّ الكمّ القليل من السّير الذاتية الشعرية، في تراث الأدب العربي الإسلامي، قد يعود من جهة إلى قوّة الجموح الشعريّ، أو إلى الصّعوبة التي تكمن في صياغة السّيرة الذاتية شعرا من جهة ثانية،

لأنّ على من يختار هذه الصياغة الأدبية أن يبذل جهداً مضاعفاً، لسرد تاريخه الخاص، بالمقارنة مع ما تتطلبه الصياغة النثرية في تأليف هذا التاريخ، مما دفع بكثير من الشعراء إلى كتابة سيرهم الذاتية نثراً، لكن هذا لا يعني في شيء أنّ الشعر غير مؤهل لاحتضان السيرة الذاتية.

وقد أخذت السير الشعرية بعد ذلك تنثرى فتناولت سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسير الملوك والأمراء والصحابة والفُقهاء والمفسرين والشعراء والمتصوفة والفلاسفة "أما السيرة الشعرية للرسول فقد تصدّى للقيام بها جماعة من المؤرخين الشعراء، كما فعل شمس الدين الباعوني المتوفى سنة 871هـ في كتابه المسمى (منحة اللبيب في سيرة الحبيب)، وكما فعل زين الدين بن الشحنة المؤرخ المتوفى سنة 815هـ في أرجوزته سيرة الرسول (ص)، وتبلغ عدّة أبياتها تسعة وتسعين بيتاً، كما فعل ابن سيّد الناس المتوفى سنة 734هـ في كتابه "بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب"..... أما السير الشعرية لغير النبي عليه السلام، فقد كتب فيها جماعة من مؤرخي العصر المملوكي، وأشهرهم الأديب الكاتب المؤرخ محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة 692هـ في كتابه "سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس"، وبهاء الدين الباعوني المتوفى سنة 910هـ في كتابه "القول السديد الأظرف في سيرة السعيد الملك الأشرف" وهي أرجوزة تقع في أكثر من خمسمائة بيت، وتشتمل على سيرة السلطان برسباي إلى قايتباي، وبدر الدين العيني المؤرخ وصاحب كتاب "عقد الجمان" المتوفى سنة 855هـ، وقد نظم سيرة المؤيد السلطاني المملوكي في كتاب يعرف بـ"الجوهرة"...¹³.

نشأة التراجم في الأدب العربي:

إنّ من أوائل الاهتمامات التاريخية عند المسلمين هو تسجيل سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومغازيه وكلّ الجوانب المتعلقة بحياته، ذلك أنّ للسيرة النبوية العطرة نُكهة

خاصّة، وطعما مميّزا عند المشتغلين بالعلوم الشرعيّة والإنسانيّة عامّة. والسيرة النبويّة كانت في الأصل جزءا من علم التاريخ الأوسع، إلّا أنّها أُفردت عنه بعلم خاصّ، له موضوعه، ومزاياه وكتبه، حتّى أصبح علم السيرة علما مستقلاّ تناول بالتفصيل حياة النّبيّ (ص) ونسبه وشخصيته وصفاته الخلقية والخُلُقِيّة.

وقد حرص العلماء على تدوين هذه الحوادث المشرقة، باهتمام كبير، ودقة بالغة، بحثا وشرحا وتعليقا وتلخيصا وتوسّعا. ولمّا تُوفي النّبيّ (ص) نشأت العناية بتدوين الحديث النّبويّ الشريف، حيث إنّ الصحابة كانوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعال النّبي وأقواله، إلّا أخصّوها وتناقلوها، وروى الصحابة، وخلف من بعدهم التّابعون، وحكوا ما سمعوه، وانتقل الحديث من جيل إلى جيل، ثمّ تكوّن سنّد الحديث وتكوّنت السّلاسل الطّويلة من الرّوّة، وتعدّدت طرق رواية الحديث وتعدّد حاملوه، وأصبح يحوي متنا وسندا، يطول ويقصر.

"وقد بلغ من عنايتهم بالحديث النّبوي الشريف أنّهم اتّجهوا إلى الكلام في رُؤاياته ورجاله، فترجموا لهم تراجم وجيرة، لم يكن يقصد منها إلّا بيان قيمة المحدث، ومكانته من الإسناد. وجرّهم ذلك إلى وضع كتب في نقد الرّجال المحدثين ووزنهم بموازين دقيقة، تجعلهم جديرين بحمل أمانة الرّواية عن رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم- فوضعوا كتباً في الحرج والتّعديل".¹⁴

ويُعتبر عملُ علماء الجرح والتّعديل عملا رائعا مُهماً جبّارا، إذ قاموا بمسح دقيق لتراجم جميع رُؤاة الحديث، وبيان الجرح أو التّعديل الموجّه إليهم أوّلا، ثمّ بيان من أخذوا عنه، ومن أخذ عنهم، وأين رحلوا، ومتى التقوا، ببعض الشّيوخ، وما إلى ذلك من تحديد زمنهم الذي عاشوا فيه بشكل لم يسبقوا إليه، بل ولم تصل الأمم المتحضّرة في هذا العصر إلى قريب ممّا صنّفه علماء الحديث، من وضع هذه الموسوعات الضّخمة في تراجم الرّجال ورُؤاة

الحديث، فحفظوا على مدى الأيّام التعريف الكامل برؤاة الحديث ونقله. ولعلّ أحسن ما أُلّف في هذا الميدان:

- معرفة الرجال ليحيى بن معين الإمام (ت.233هـ).
 - العلل والرجال للإمام أحمد بن حنبل (ت.241هـ).
 - علل الحديث ومعرفة الشيوخ لأبي جعفر محمد بن عبد الله بن عمّار الموصلي (ت.242هـ).
 - الجرح والتعديل للحسين بن عليّ بن يزيد الكرابيسي (ت.248هـ).
 - رؤاة الاعتبار للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت.261هـ).
 - الجرح والتعديل للإمام الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (ت.279هـ).
 - التمييز للإمام النسائي أحمد بن شعيب (ت.303هـ).
 - قبول الأخبار ومعرفة الرجال للبلاخي عبد الله بن أحمد بن محمود (ت.319هـ).
 - ثقات المحدثين وضعفائهم لأبي العرب التميمي القيرواني (ت.333هـ).
 - الإرشاد إلى معرفة علماء البلاد للحافظ أبي يعلى الخليلي (ت.446هـ).
 - الجرح والتعديل لأبي الوليد الباجي سهل بن خلف (ت.474هـ).
- إنّ هذه المؤلفات الخاصة برجال الحديث قدّمت خدمة جليلة لفنّ التراجم، كما نبّهت الأذهان حتّى توضع تراجم آخر لطبقات من الرجال، متّقة في لون واحد من العلم، أو الفنّ أو الصناعة. وظهرت باكورة المحاولات لكتابة السيرة النبوية على يد الفقيه المحدث عروة بن الزبير (ت.92هـ)، والذي مكّنه نسبه من جهة أبيه الزبير بن العوّام وأمّه أسماء بنت أبي بكر، أن يروي الكثير من الآثار والأخبار والأحاديث، التي تتّصل بالنبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) وحياته وفجر الدّعوة الإسلامية.

واشتهر في الحقبة نفسها رجالاً أدلوا بدلائهم في معين السيرة، وألّفوا فيها أمثال أبان بن عثمان بن عفّان (ت.150هـ)، ووهب بن منبه (ت.110هـ)، وعاصم بن قتادة (ت.124هـ)، وعبد الله بن أبي بكر بن خزم (ت.135هـ).

ثم ظهرت طبقة أخرى من المؤرّخين المهتمّين بالسيرة النبوية، كان أبرزهم: موسى بن عقبة (ت.141هـ)، ومعمّر بن راشد (ت.150هـ)، ومحمد بن إسحق (ت.152هـ). ثمّ جاء بعد هؤلاء رجالاً لم يبلغوا شأواً ابن إسحق، كان أبرزهم: البكائي تلميذ ابن إسحق، وشيخ ابن هشام (ت.183هـ)، ومحمّد بن عمر الواقديّ صاحب المغازي (ت.207هـ).

كتب التّراجم التي تناولت سيرة الرّسول:

ومن كتب التّراجم التي تناولت سيرة الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) والصّحابة الكرام كتاب "الطبقات الكبير" لابن سعد (ت.230هـ)، أفرد جانباً منه لتراجم الصّحابة الذين شهدوا بدراً، وتراجم المهاجرين والأنصار الذي لم يشهدوها، وتراجم أهل مكّة والطّائف واليمامة... وهو أشهر الكتب وأوثقها وأقدمها في هذا الباب.

• ويخطو هذا الفنّ خطوة أخرى مع الإمام البخاري المتوفّى سنة 256هـ، صاحب الصّحيح المشهور، وذلك في كتابه الذي جعله في ثلاثة أقسام، وقد رتّب أكبر أقسامه على الحروف ورتّب أوسطها على السنين.¹⁵

• الاستيعاب في معرفة الصّحابة لأبي عمرو يوسف بن عبد البرّ (ت.463هـ).

• أسد الغابة في معرفة الصّحابة لابن الأثير (ت.630هـ).

• السيرة النبويّة لعبد الملك بن هشام (ت.834هـ).

• الإصابة في تمييز الصّحابة لأحمد بن حجر العسقلانيّ (ت.852هـ).

وهناك مؤلّفات ترجمت للأطباء والحكماء والفلاسفة، ومن أشهرها:

■ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة موفّق الدين أبي العباس أحمد (ت. 668هـ).

■ تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي (ت) وقد حقّق الكتاب محمد عليّ كُرد سنة 1946.

ومن كتب تراجم المحدثين والقُرّاء والفُقهَاء والمفسّرين، نذكر على سبيل المثال:

❖ التّاريخ الكبير في رجال الحديث للبُخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (ت. 256هـ).

❖ غاية النّهاية في طبقات القُرّاء للجَزْري لمحمّد بن محمد بن عليّ بن يوسف.

❖ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت. 430هـ).

❖ طبقات الصّوفية للسّلمي.

❖ طبقات الحفّاظ لمحمد بن أحمد الذهبي (ت. 748هـ).

❖ كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرّجال للذهبي (ت. 748هـ).

❖ طبقات الحنابلة وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب زَيْن الدين أبي الفرج عبد الرحمن (ت. 795هـ).

❖ تهذيب التّهذيب لأحمد بن حجر العسقلاني (ت. 852هـ).

❖ لسان الميزان للعسقلاني.

أمّا كتب التّراجم التي ترجمت للشّعراء والأدباء فنذكر منها:

✓ المؤتلف والمختلف للآمديّ أبي القاسم الحسن بن بشر (ت. 370هـ) وقد حقّقه عبد

السّتار أحمد فراج سنة 1961.

"وغرض الأمدى في كتابه أن يُورد تراجم فئات من الشعراء الذي تماثلت أسماؤهم، واختلفت أشخاصهم. وهذا التمييز الدقيق يجلو كثيرا من اللبس الذي قد يعرض للباحث فيزيله، من مثل من سُمي بالأعشى من الشعراء، أو من عُرف بالنابغة".¹⁶

✓ معجم الشعراء للمرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران (ت.384هـ) وهو مرتَّب ترتيبا مُعجميًا، وقد شمل المشهورين والمغمورين على حدِّ سواء.

✓ يتيمة الدهر لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت.429هـ). جعله صاحبه ترجمة ومنتخبات لأشعار العالم الإسلامي، وهو ذيل لكتاب البارع في أخبار الشعراء لهارون المنجم.

✓ دُمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي أبي الحسن علي بن الحسن (ت.467هـ).

✓ كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (ت.542هـ).

✓ نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت.577هـ).

✓ جريدة القصر وخريدة العصر للعماد الأصفهاني محمد بن محمد (ت.597هـ).

✓ معجم الأدباء لياقوت الحموي أبي عبد الله (ت.626هـ).

ومن المؤلفات التي ترجمت للنخاة واللغويين:

➤ مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (ت.351هـ)، وينطوي على تراجم النخاة

واللغويين لايزيد عددهم عن بضعة وستين عالما.

➤ طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي الأندلسي الإشبيلي (ت.379هـ)،

وهو مصدر أصيل لعدد من النخاة واللغويين والمتأدبين يزيد عددهم عن ثلاثمائة.

➤ نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري (ت. 328هـ) وقد بلغ عدد التراجم فيه مائة وسبعين.

➤ إنباه الرؤاة على أنباء النحاة لجمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت. 646هـ) ويحتوي على 813 كترجمة وهو معجم لأعلام النحو واللغة.

➤ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي (ت. 911هـ)، وقد احتوى الكتاب على عدد كبير من التراجم بلغ 2209.

التراجم الذاتية في الأدب العربي:

"حين بدأ فنُّ التراجم يظهر في إنجلترا وفرنسا بصورة ساذجة، كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حدًا من الكثرة والتنوع، وسعة المجال والافتتان في موضوعات التراجم لا يُقاس به بداية غير منتظمة الخطى في الآداب الأوروبية".¹⁷

نماذج عالية من السيرة الذاتية:

ومن الكتب التي تُعدُّ نموذجًا عاليًا للسيرة الذاتية كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي" (849-911هـ). وقد ترجم السيوطي ترجمة وافية لنفسه في كتابه هذا "حسن المحاضرة"، إسوة بما فعله كثير من العلماء من قبله، ونذكر منهم: ياقوت الحموي في كتابه "معجم الأدباء"، ولسان الدين بن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، والحافظ تقي الدين الفاسي في كتابه "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"، وابن حجر العسقلاني في كتابه "الأعلام"...

وُلد جلال الدين بعد مغرب ليلة الأحد مستهلَّ رجب الفرد، من سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فنشأ يتيما وحفظ القرآن وكتاب العمرة في الحديث للجماعيلي، والمنهاج في فقه الشافعية، وكتاب المنهاج في أصول الفقه، وألفية ابن مالك، ثم شرع في أوائل سنة 864هـ

وسنّه، إذ ذاك خمسَ عشرةَ سنةً إلّا قليلا في الاشتغال بطلب العلم عن أكابر علماء وقته منهم: العلامة شهاب الدّين الشّاراميّ، وشيخ الإسلام علم الدّين البلقيني وولده، وشيخ الإسلام شرف الدّين المناوي، والإمام العلامة تقي الدّين الشّبليّ، والعلامة الكبير محيي الدّين الكافيجيّ والشيخ سيف الدّين الحنفيّ...

وقد رحل في طلب العلم إلى بلاد كثيرة، ومن هذه البلاد الشّام والحجاز واليمن والهند والعرب والتّكرور. وقد أُجيز بتدريس العربيّة وعمره سبعةَ عشرَ عاماً، وأُجيز بالتّدريس والإفتاء وعمره سبعةَ وعشرونَ عاماً، وشرع في التّأليف والتّصنيف سنة ستّ وستّين، وأول شيء ألفه رسالة في شرح الاستعاذة والبسملة، وجلس يُملي الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة.

وجلال الدّين السيوطي أغنى الباحثين عن تاريخه وذكر شيوخه ومؤلفاته، فكتب لنفسه ترجمة عند الكلام على من كان بمصر من الأئمة المجتهدين من كتابه "حسن المحاضرة". قال: "... عبد الرّحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدّين بن الفخر بن عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين بن أبي الصّلاح أيوب بن ناصر الدّين محمد بن الشيخ همام الدّين الهمام الخضيريّ الأسيوطي.

وإنّما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءً بالمحدّثين قبلي، فقلّ أن ألف أحدٌ منهم تاريخاً إلّا ذكر فيه ترجمته... أمّا جدّي الأعلى همام الدّين فكان من أهل الحقيقة، ومن مشايخ الطرق، وسيأتي ذكره في قسم الصّوفيّة... وأمّا نسبنا بالخضري فلا أعلم ما تكون هذه النّسبة إلّا الخُضريّة، محلّة ببغداد... نشأتُ يتيماً فحفظتُ القرآن... ثمّ حفظتُ العمدة ومنهاج الفقه والنّحو عن جماعة من الشّيوخ... وشرعتُ في الاشتغال بالعلم، وأخذتُ الفرائض عن العلامة فرضيّ زمانه الشّيخ شهاب الدّين الشّارماساجيّ... وأُجزتُ بتدريس العربيّة في مستهلّ سنة ستّ وستّين، وقد ألفت في هذه السّنة فكان أوّل شيء ألفته شرح

الاستعانة والبسمة...ولزمتُ في الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي...وشرعتُ في التصنيف في سنة ستٍ وستين، وبلغتُ مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب... وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور...ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع، على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة...وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير، أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه، وعدتهم نحو مائة وخمسين، ولهم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية.¹⁸

إن كتاب "حسن المحاضرة" كان استجابة ذاتية داخلية من المؤلف، حيث كتب تاريخ نفسه وسجل حوادثه وأخباره، ما تقدم منها وما تأخر، وسرد أعماله، وما ترك من آثار، كما حدثنا عن أيام الطفولة والشباب والكهولة، وما جرى له فيها من أحداث جسيمة...وحين تقدم به العمر، وأحس من نفسه ضعفاً خلا إلى نفسه في منزله بروضة المقياس على نيل مصر، واعتزل الناس، وتجرد للعبادة والتصنيف، وألف كتابه المشهور "التنقيس في الاعتذار عن الفُتيا والتدريس". وللإشارة فإن كتاب "حسن المحاضرة" ليس كتاباً في الترجمة الذاتية فقط، وإنما هو كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها. "ذكر فيه ثمانية وعشرين كتاباً ألفت في أخبار مصر، فلخصها وأورد ملوكها، ومن دخلها من الأنبياء والحكماء، ثم ذكر الأهرام والإسكندرية ومن دخلها من الصحابة والتابعين، ثم ذكر أعيانها، وملوك مصر ونوابها في الدولة الإسلامية وعساكرهم، وما فيها من المدارس والنيل، وما قيل فيها من الأشعار".¹⁹

ومن الذين صنفوا في السيرة الذاتية ونقلوا إلينا تجاربهم وخبراتهم، ابن حزم الأندلسي (ت.454هـ)، وهو عالم عربي مسلم من أهل الأندلس، تفنن في علوم كثيرة، وهو فقيه مجتهد مشهور، ومؤرخ وشاعر رقيق، غرق في قضايا السياسة، وكانت من الأسباب

التي رَجَبَتْ به في غيابات السَّجْن، وأدَّت به آخر الأمر إلى النَّفي. وقد نُشرت له رسائلُ وكتب. وله في الفلسفة كتاب "الأخلاق والسَّيَر ومداواة النَّفوس"، وفي الدِّين له كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنَّحل"، وفي التَّاريخ له كتاب "جمهرة أنساب العرب"، وفي الأدب له كتاب "رسالة الأخلاق وطوق الحمامة في الألفه والألأف". "وهو يُعْنَى بالآلفه والمحبة، وقد بحثها من جميع أطرافها، بحثها في أصولها وصفاتها وأعراضها، ولم يُطلق الكلامَ إطلاقاً، بل عَرَضه على التَّجربة والخبرة في نفسه، وسكَّان قرطبة لعصره، من أمراء وعلماء وأدباء".²⁰

وطَوْقُ الحمامة كتابٌ فريدٌ من نوعه أَلَّفَهُ ابنُ حزم، ضمَّ نثرًا وشعراً، حول فلسفة الحبِّ وماهيته، وأثره في المحبِّين، وقد فلسف ابنُ حزم الحبَّ وعرض بواعثه، وإثارته، وأسباب انحلاله. وتحدَّث عن الحبِّ من أوَّل نظرة، وعن الحبِّ بعد طول العشرة، وكان يستشهد دائماً بالشواهد الشَّعرية من نَظمه، أو من نظم الشعراء العشاق، أو بأخبار سمعها، أو أحداث عاينها، وذلك تأييداً لما يذهب إليه.

وهذا الموضوع ليس جديداً في الأدب العربيِّ، فالجاحظُ (ت.255هـ) كان قد تعرَّض إليه في رسالته السَّابعة "في العشق والنِّساء". كما تعرَّض إليه أبو داود الظَّاهري الأصفهاني في كتاب "الزَّهوة" ومن بعده بَقْرُون عِدَّة تناول هذا الموضوع الطَّبيب الصَّرير داود الأنطاكي في كتابه "تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق".

وقد جاء كتاب "طوق الحمامة" صورة للواقع الأندلسيِّ الذي عايشه ابن حزم وقد دفعه إلى تأليفه ما كان يعيشه من آلام نفسيَّة، وقد أيقظ في نفسه رغبة الكتابة تشجيع أحد خِلانِه على تأليف كتاب في حقِّ النِّشأة ومحبة الصِّبا، فكان هذا الكتاب. يقول: "وكَلَّفْتَنِي أعزَّكَ اللهُ أَنْ أَصَنَّفَ لك رسالة في صفة الحبِّ ومعانيه وأسبابه وأغراضه، وما يقع فيه، وله على سبيل

الحقيقة، لا مترجداً ولا متفناً، لكن مُورداً لما يحضرني على وجهه، وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي، وسعة باعي فيما أذكره، فبادرتُ إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته...".²¹

ونراه يعترف بصدق عن نفسه، ويحدثنا عن صفات أحبها في محبوبه، ولا يستحسن بعدها غيرها ممّا يخالفها: "ودعني أخبرك أنّي أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراء الشعر، فما استحسنْتُ من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنّه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وإنّي لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تُؤايني نفسي على سواه ولا تحبُّ غيره البتّة. وهذا العارض بعينه عرض لأبي-رضي الله عنه- وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله".²²

ونرى ابنَ حزم يذهب مذهبا بعيدا ليعتمق استبطانَ أحواله النفسية ويعبر عن لوعة الحب، هذا الحب الذي لا يعصمُ منه حصن منيع، ولا صرخ مَشِيد. ويظهر بطش الحب وعُدوانه، حيث يذهب بالوقار والجلال والمال والجاه، وقديما قالت العرب: "الهوى إلهٌ معبود". وإنّهم لصادقون، لأنّ الهوى قاهرٌ جبارٌ، وتذهب النفس على الحبيب حسراتٍ، ويتقطع القلب في آثاره قطعاً. يقول: "وعنّي أخبرك أنّي ما رويْتُ قطُّ ماء الوصل، ولا زادني إلّا ظمًا، وهذا حكم من تداوى بدائه، وإنّ رفّة عنه شيئاً ما، ولقد بلغتُ من التّمكّن بمن أحبُّ أبعدَ الغايات، التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدْتُني إلّا مُستريداً، ولقد طال في ذلك، فما أحسستُ بسامة ولا رَهَقَتِي فترةً، ولقد ضمّني مجلسٌ مع بعض من كنتُ أحبُّ، فلم أجُلْ خاطري في فنٍّ من فنون الوصل، إلّا وجدته مُقصّراً عن مرادي وغير شافٍ وجدي، ولا قاضٍ أقلّ لبانة من لباناتي، ووجدْتُني كلّما ازددتُ دنوّاً، ازددتُ تلوّعاً وقدّحت زناد الشوق نارَ الوجد بين ضلوعي...".²³

ونختم الحديث عن ابن حزم بكلمة لإحسان عباس: "ولم يكتب أحد في موضوع الحب كتابة قائمة على التجربة والمشاهدة والاعتراف وبعض التعمق النفسي، مثلما فعل ابن حزم الأندلسي، ولولا أنه مزج كتابه بأشعاره الكثيرة، والتزم فيه تقسيمات مُصطنعة، لاستوفى المتعة الصحيحة، وما قَصّر عن الغاية".²⁴

ومن السير الذاتية الطريفة في الأدب العربي سيرة أسامة بن منقذ (ت. 584هـ) التي ضمّنها كتابه المشهور "الاعتبار"، وقد ألف أسامة هذا الكتاب لصالح الدين، وكان مستشاراً له، كما حكى أبو شامة منذ عام 570هـ، وإذا ما تخلف عن الغزوات كاتبه وحذّته بالواقعة. وكتاب الاعتبار يُعدّ صورة صادقة للمجتمع الذي كان يضطرب آنذاك اضطراباً عنيفاً، وتعصفُ به الفتن عن يمين وشمال، وتتخره الأهواء، وغلبة الأطماع، وانعدام الأمن وظهور بعض التيارات الفكرية المتطرّفة...

وهذا الكتاب وثيقة حيّة لأحداث ذلك الزمن الحافل بشتى الأزمات السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية، وهو مصدر من مصادر التاريخ المعبرة، فقد ذكر الذهبي أنه كان يحتفظ بنسخة منه، واغترف منه أبو شامة في كتابه "الروضتين" وابن واصل في "مفرج الكروب"، وابن النديم في كتابيه "زبدة الحلب" و"بغية الطلب"، وابن شدّاد في "الأعلاق الخطيرة"، والمقرئ في "انعاض الحنفا" و"المقفى". فالكتاب يُعدّ من كتب السيرة الذاتية النادرة ووثيقة أدبية قلّ مثيلها.

ومن أقدم من عالج السيرة الذاتية داعي الدعاة أبو نصر الله هبة الله بن الحسين السلماني (نسبة إلى سلمان الفارسي)، ولد بشيراز نحو سنة 390هـ وترعرع وشبّ بها إلى أن بارحها سنة 429هـ، حيث خرج منها خائفاً يترقب فرقاً من السلطان، وتوجّه تلقاء الأهواز ونزل بها، غير أنه لم يكن مطمئناً، فهبط حلّة المنصور بن الحسين الأسدي الذي ملك

الجزيرة بجوار خوزستان، ثم اتجه منها إلى قرواش أبي المنيع بن مقلد أمير بني عقيل، صاحب الموصل والكوفة والأنبار، وكان قد ورث المذهب الفاطمي عن أبيه، فأخذ يدعو إليه سرًا، حتّى بلغ مصر سنة 436هـ، ومكث بها إلى أن أصبح له شأن كبير ونفوذ في البلاد، وخلع عليه لقب داعي الدعاة سنة 450هـ، وتوفي بمصر سنة 470هـ. ومن أهم مؤلفاته "المجالس المؤيدية"، وقد صور لنا حياته، وتحدث عن الفاطميين الدعاة وأنصار المذهب الإسماعيلي.

"وقد ظلت هذه السيرة الذاتية مغفلة الإشارة إليها في كتب التراجم والتاريخ، ولعلّ لقيام المذهب الإسماعيلي نفسه على التقية والستر أثرًا في اختفاء هذه الترجمة الحافلة، بكثير من الفوائد التاريخية، إلى أن أتيح لها أن تظهر من عهد غير بعيد".²⁵

ومن الذين ترجموا لأنفسهم ترجمة ذاتية الشيخ الرئيس ابن سينا (ت. 428هـ). "فقد سأله أحد تلاميذه أن يحكي له تاريخ حياته، فأملى عليه ما سطره، ثم جاء تلميذه أبو عبيد الجوزجاني، فكتب رسالة في ترجمة حياة أستاذه ابن سينا، جعلها قسمين: أولهما ما سمعه من أستاذه، وثانيهما هو ما أضافه أبو عبيد منذ أن لحق بخدمة الشيخ إلى أن أدركته الوفاة. فحكاية الشيخ الرئيس تاريخ حياته، وما شاهده الجوزجاني من مصاحبة له حتّى الوفاة سنة 428هـ هما المصدر المعول عليه في كلّ ما يرجع إليه من تاريخ ابن سينا".²⁶

وممن ترجم لنفسه من رجال الأمة العربية الإسلامية "العماد الأصبهاني أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. 597هـ)، وقد قديم إلى بغداد، وتفقّه في المدرسة النظامية، وتضلّع من علوم الدين، وفوّض إليه التدريس في المدرسة العمادية، ثم سافر إلى الموصل بعد وفاة العادل، وقصد صلاح الدين وكان في خدمته. وله مصنّف مشهور وهو "البرق الشامي"، وهذا الكتاب وضع لبحث في تاريخ الدولة النورية والصلاحية، مع اعتراف العماد بأيادي

صلاح الدين البيضاء عليه، فكان اهتمام الكتاب بفترة صلاح الدين آية شكر، يُقدّمها للسلطان بعد وفاته.

كما يتطرّق الأصبهاني إلى ذكر أمور شخصيّة وعائليّة تخصّه، والكتاب يُصنّف ككتاب في السيرة الذاتيّة، حيث يبدو العماد في مواطن كثيرة من الكتاب مركزاً للأحداث، وليس شاهد عيان فقط لما جرى أو لما يتحدّث عنه.

وممن ترجم لنفسه كذلك المؤرّخ شمس الدين السخاوي (ت. 902هـ) في كتابه الشهير "الصّوّء اللّامع في أعيان القرن التّاسع"، وقد ترجم لنفسه ترجمة أسهب فيها، ولسان الدين بن الخطيب القرطبي (ت. 776هـ) في كتابه المشهور "الإحاطة في تاريخ غرناطة"، وهي مجلّات ضخمة في تاريخ مدينة غرناطة الأندلسيّة، وأشهر أعلامها، والمؤرّخ عبد الرّحمن بن خلدون (ت. 808هـ) في كتابه "التّعريف" وهو رحلة دَوّنَ فيها مشاهداته ومسموعاته عبر الأسفار التي قام بها، حيث ربط بين التّاريخ والجغرافيا، وسجّل أحوال النّاس، وذكر الأحداث اليوميّة والمجالس الحيّة التي رآها وعايّشها في مشارق الأرض ومغاربها، والمؤرّخ الأندلسيّ أبو العبّاس أحمد بن محمّد المقرّي (ت. 1041هـ) في الجزء الأوّل من كتابه "نفح الطّيب من غُصن الأندلس الرّطيب". وقد وصف رحلته شرقاً وغرباً، ويحوي إلى جانب ذلك كثيراً من النّصوص الشّعريّة والنثرية والتّراجم أعلام الأندلس.

الهوامش:

1. محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، دار الغرب الإسلامي، ط. 1997، ج 4، ص 383.
2. إحسان عباس، فنّ السيرة، دار صادر، دار الشروق، ط 1، 1996، ص 95.
3. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دت 307/1.
4. لوجون فيليب، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 24.
5. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف بمصر، ط 2، 1956، ص 5.
6. الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهبات، دار الأرقم، بيروت، دت، ص 79.
7. طه حسين، حديث الأربعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1974، م 2، ج 1، ص 64.
8. الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهبات، ص 120.
9. الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهبات، ص 25.
10. خالد محمد خالد، قصتي مع الحياة، المَقْطَمُ للنشر والتوزيع، القاهرة، دت، ص 34.
11. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 77.
12. ابن الفارض، الديوان، دار القلم العربي بحلب، دت، ص 37.
13. محمد عبد الغني حسن وآخرون، التراجم والسير، ص 37.
14. التراجم والسير، ص 18.
15. علي بن محمد، ابن بسام الأندلسي وكتاب الدخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1989م، ص 98.
16. عمر الدقاق، مصادر التراث العربي، دار الشرق العربي، بيروت، دت، ص 242.
17. محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، ص 11.
18. السُّيُوطِي، حُسن المحاضرة، 142/1-144.
19. د. محمد التَّونْجِي، المعجم المفصّل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993، 366/1.
20. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 40.
21. ابن حزم، طوق الحمامة، موفم للنشر، المؤسسة الوطنية، ط 1، 1988، ص 2-3.

22. طوق الحمامة، ص 42.
23. المصدر السابق، ص 98-99.
24. إحسان عباس، فنّ السّيرة، ص 113.
25. التّراجم والسّير، ص 24.
26. محمّد عبد الغنيّ حسن، تراجم عربيّة، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، ط 1968، ص 9.